هوامش

لكلّ شعب ثقافته الخاصة بالحياة والموت، فتختلف طقوس استقبال المولود الجديد وكذلك وداع من وافته المنيّة. وبينما تتشابه عادات جماعات معيّنة، تبرز تقاليد متمايزة عند أخرى، وهذه حال ثقافة الموت في الصين

زيارة للمقابر احتفالا بمهرجان «تشينغ مينغ» (فرانس برس)

ثقافة الموت في الصين

طقوس غير مألوفة وجذور تاريخية

بكين ـ **علي أبو مريحيل**

يُعَدّ الموت بحسب المعتقدات الشعبية الصينية اضطراباً في التوازن الكوني، لذلك يتجنّب الصينيون الحديث عنه والخوض في تفاصيله لاعتقادهم بأنّ من شأن ذلك التأثير على السلام الداخلي للنفس البشرية، ما قد يعيق دورة حياة الفرد ودوره في المجتمع الذي يعيش فيه. وانطلاقاً من هذه النظريّة، فإنّ طقوس وبروتوكولات الجنائز في الصين لا تأتي كمجرّد امتثال لتعاليم كونفوشيوس التي تدعو إلى توقير الأسلاف واحترامهم، بل تُقام كذلك من أجل إعادة التوازن وتحقيق التكافؤ والانسجام بين قوى الخير والشر.

والموت وفق المنظور الصيني ليس منجلاً يحصد الأرواح ويمضي وليس حدثاً آنياً ينتهي بقبض الروح، بل هو حرب معلنة تستهدف في المقام الأول ذوي الميت ويقودها جيش من الأرواح الشريرة، ما يستدعي مجموعة من التحصينات المضادة لقطع الطريق نحو ثروات الأحياء وأعمارهم ونصيبهم من الحظ والنعمة. لذلك تبدو طقوس وأجواء التشييع في الصين أقرب إلى الملاحم التراجيدية بكل تفاصيلها، منذ حدوث الوفاة حتى نهاية الأسبوع الأوّل من ذلك التاريخ حين تعود روح الميت لوداع أصحابه.

وبخلاف ما هو سائد في معظم دول العالم، يُعلن عن الوفاة والحداد في الصين من خلال نصب راية بيضاء على باب منزل الميت، ويتّشح أهله بالبياض. في حال كان الميت طفلاً دون الثامنة عشرة، لا تقام له مراسم عزاء لأنّ التقاليد الصينية لا تحبّذ قيام الكبار بإظهار الاحترام لمن هم أصغر منهم سناً. لذلك يُدفن الرّضع والأطفال بصمت. أمّا إذا كان الميت كبيراً، فيتوافد المعزّون من كلّ حدب وصوب، وتُستثنى من ذلك النساء الحوامل وكذلك الأشخاص المقبلون على الزواج، لأنّ المشاركة في مناسبة مماثلة تجلب الفأل السيّئ.

مراسم متكاملة

تبدأ المراسم بإلباس الميت ثياباً أنيقة، فيما يتجنّب الأهل والأصدقاء ارتداء الملابس الحمراء لأنّ اللون الأحمر يرمز إلى الفرح بحسب الثقافة الصينية، وفعل ذلك يُعَدّ تقليلاً من قدر الميت. كذلك، في أثناء فترة وداعه، تحرص الأسرة على تغطية المرايا في داخل المنزل بالستائر الحمراء، لاعتقادهم بأنّ الأرواح الشريرة تتداعى إذا ما انعكست صورتها عبر المرآة، وبالتالي تجلب اللعنة لسكان المنزل.

ولأنّ الصينيين بمعظمهم متأثّرون بالبوذية، فإنّهم يفضّلون حرق الجثث على دفنها في التراب، فضلاً عن أنّ السلطات الصينية تمنع عمليات الدفن لأنّ في ذلك استنزافا للأراضي الزراعية الشاسعة في البلاد، علماً أنّ مسألة الدفن أو الحرق تخضع بدورها إلى معايير واعتبارات خاصة لها علاقة بالثقافة الصينية. فقد يسجّى جثمان الميت أسبوعَين كاملَين قبل الدفن في انتظار أن يتوافق موعد ذلك مع تاريخ محدّد يرمز إلى معنى إيجابي، مثل اختيار اليوم الثامن من الشهر. فلفظ الرقم ثمانية باللغة الصينية هو «با» ويرمز إلى السعادة والثراء، بخلاف الرقم أربعة الذي يُعَدّ نذير شؤم لأنّ لفظه باللغة الصينية هو «سي» أي الموت.

إلى جانب حرق الجثة، تُحرَق نقود ورقية رمزية ويُنثر الأرزّ على طول خط سير الجنازة، وذلك بهدف إبعاد الأشباح الجائعة والأرواح الشريرة عن المكان. كذلك يتجنّب المشاركون في مراسم التشييع ارتداء الملابس الفاخرة ووضع المجوهرات وحمل أشياء ثمينة مثل الحقائب والساعات باهظة الثمن، لأنّهم مطالبون عند انتهاء المراسم بحرق كلّ شيء كان معهم. ولأنّ الصينيين يعتقدون بأنّ روح الميت تعود بعد ثلاثة أيام، فإنّهم يعدّون الولائم في اليوم الثالث من دون أن يلمسها أحد، فتقدَّم قرباناً. ويُشعلون كذلك البخور والفوانيس الحمراء ليمثّلا منارة في إرشاد الروح نحو مبتغاها. وبعد مرور مائة يوم، وهي فترة الحداد المتعارف عليها في الصين، تبدأ أسرة الميت بحرق كلّ مقتنياته من أدوات مختلفة وملابس، كذلك تُطلى جدران المنزل، خصوصاً غرفة الميت، وتُفتح الأبواب والنوافذ لطرد الطاقة السلبية، تمهيداً إلى عودة الحياة إلى المنزل كما كانت عليه قبل حدوث الوفاة.

تعاليم كونفوشيوس

عن هذه التقاليد والطقوس يقول جاو لونغ وهو سكرتير مركز كونفوشيوس في مقاطعة لياونينغ، إنّه «على الرغم من مرور أكثر من ألفين وأربعمائة عام على ظهور الكونفوشيوسية (نسبة إلى الفيلسوف الصيني كونفوشيوس)، فإنّها (هذه الفلسفة) ما زالت تؤثّر بشكل كبير على التفكير والسلوك الصيني، خصوصاً في ما يتعلق بمسألة الحياة والموت»، مؤكداً أنّ «طقوس الجنائز جزء مهمّ من الحياة الاجتماعية في الصين ينمّ عن فهم فلسفي لمعنى الموت». ويوضح لـ«العربي الجديد» أنّ «الصينيين القدماء منذ أسرة تشين التي أسّست الإمبراطورية الصينية الأولى، كان لديهم مفهوم خاص بالموت ويعتقدون بأنّ أرواح الأموات قد تعيش في مكان آخر. لذلك كانوا يدفنون مع موتاهم كلّ ما يلزم لذلك». ويستشهد بجيش الطين أو ما يعرف بـ«التيراكوتا» الذي عُثر عليه في مدينة شيآن إلى جانب ضريح الإمبراطور الأوّل تشين شي خوانغ، الممتد على مساحة 56 كيلومتراً مربّعاً.

ويشير جاو لونغ إلى أنّ الصين تحتفل بالأموات في مهرجان «تشينغ مينغ» الذي يهدف إلى «تبجيل هؤلاء من خلال زيارة قبورهم وتقديم الأطعمة والمشروبات لهم بصورة رمزية. وتُدعى الأجيال الجديدة إلى المشاركة امتثالاً لتعاليم كونفوشيوس». ويؤكّد أنّ ثقافة الموت الصينية مكثّفة وعميقة وتنطوي على ألغاز عديدة من التاريخ الصيني القديم. هي ألغاز ما زالت في حاجة إلى مزيد من الدراسة والاستكشاف، خصوصاً أنّ الحديث هنا يرتبط بحضارة تعود جذورها إلى آلاف السنين».

أياً تكن غرائب تقاليد وطقوس الموت في الصين والتي تبدو غير مألوفة في مجتمعات وحضارات أخرى، فإنّها في الواقع تنطلق من مبدأ إنساني مشترك، يتعلق بالرغبة في التعبير عن احترام وتقدير الميت بغضّ النظر عن المعتقد الذي يمثّل مفترق طرق بين أمة وأخرى حول مصير الروح وملامح «الحياة الثانية».

باختصار

الموت وفق المنظور الصيني ليس منجلاً يحصد الأرواح ويمضي وليس حدثاً آنياً ينتهي بقبض الروح، بل هو حرب معلنة

■■■

بخلاف ما هو سائد في معظم دول العالم، يُعلن عن الوفاة والحداد من خلال نصب راية بيضاء على باب منزل الميت، ويتّشح أهله بالبياض

■■■

تحتفل الصين بالأموات في عيد «تشينغ مينغ» الذي يهدف إلى تبجيل هؤلاء من خلال زيارة قبورهم وتقديم الأطعمة والمشروبات لهم

وأخيراً

«يأتون من بعيد»

نجوى بركات

لا نعرف، نحن المشاهدين، من هو كارلوس الذي تتوجّه إليه الكاتبة والمخرجة باللغة الإسبانية، في بداية فيلمها الوثائقي الذي يحمل عنوان «تأتون من بعيد». ما نعرفه فقط ونحن نتأمل الصورة الثابتة التي تنقل مشاهد من قصف بغداد بالنيران الأميركية، عام 2003، أنّ كارلوس ذهب إلى هناك ليساند العراقيين، كما سبق أن فعل مناضلون أمميون عرب قدموا من الجزائر والعراق وفلسطين ولبنان ومصر والمغرب إلى إسبانيا بالمئات، لمساعدة الجمهوريين في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية.

من هنا، تبدأ قصة الفيلم الذي ألّفته وأخرجته المصرية أمل رمسيس، أو لنقل هنا تكمن ذريعته: البحث والتقصّي عن أولئك المناضلين العرب الذين وقفوا إلى جانب الإسبان ضد فرانكو، ثم نسيهم التاريخ ومحتهم الذاكرة، في حين يركّز التاريخ على آلاف الجنود المغاربة الذين استقدمهم الانقلابُ الفاشيّ من المستعمرات، وكان يرسلهم إلى الموت، بوضعهم في الخطوط الأمامية ضد الثوّار. من ضمن الأوائل، اسم معروف: إنه الصحافي الفلسطيني والكاتب والمترجم، نجاتي صدقي، الذي ستتجمّع خيوطُ سيرته شيئاً فشيئاً، على لسان ابنتيه اللتين سنتعرّف إليهما منذ البداية: الابنة الكبرى دَوْلت التي تعيش في موسكو، والابنة الثانية هند المستقرّة في أثينا، حيث التحق بها والدُها وتوفي هناك (1979).

والحال أنّ دولت ستستولي على قلوبنا، حين نروح نكتشف قصة حياتها، وما معنى أن تكون ابنة لمناضلَيْن أمميّين، نجاتي ولوتكا الأوكرانية اليهودية، وقد انتسبا إلى الحزب الشيوعي في القدس، وناضلا ضد الاحتلال الإنكليزي الذي سجن الوالد، ومن ثم الوالدة والطفلة بسبب نشاط هذا الأخير. يقرّر الكومنترن إرسال دولت إلى موسكو، حيث ستُدخَل ميتماً للأولاد الآتين من الشرق (أندونيسيا، الصين، الهند... إلخ)، فيصير اسمها دوليا سعدي، نسبة لاسم أبيها الحركي (سعدي). هناك، تعلمت دوليا اللغة الروسية، وأمضت مدةً لا تعرف عن أهلها شيئاً، برغم محاولات والديها التواصل معها عبر الصليب الأحمر وسواه من المؤسسات.

إثر إطلاق سراح نجاتي ولوتكا، بعد عامين من السجن، أُرسلا مع جوازاتٍ مزوّرة في مهمّة طويلة نقلتهما من القدس، إلى صور (جنوب لبنان) وإلى بيروت، ثم إلى إسطنبول، فبلغراد، وفيينا، وبرلين النازية، وصولاً إلى باريس، حيث عمل نجاتي على إصدار نشرة سرّية باللغة العربية، تدعو إلى الثورة ضد الاحتلال، وقد استمرّت ثلاث سنوات، كان خلالها متخفّياً فلم يتمكنوا من العثور عليه.

1936 كان عاماً حاسماً بالنسبة للجميع، مفعماً بالأمل، ففي فرنسا انتصرت الجبهة الشعبية، ثم في إسبانيا، ما جعل الناس يصدقون أنّ بالإمكان تحقيق الأحلام، والانتقال إلى مجتمعاتٍ أكثر حرية وعدالة ومساواة. دوليا أيضاً كان لها نصيبها من الأمل، إذ جاء والدها وزارها في موسكو، ثم جاءت والدتها وأخرجتها من الميتم، لتعيشا معاً زهاء ثلاث سنوات في فندق، فيما كان نجاتي قد وصل إلى برشلونة، بعد رحلةٍ طويلةٍ لينضمّ إلى مئات الشبان الأمميين الذي قدموا من مختلف أنحاء العالم لمدّ يد المساعدة. تروي دوليا بطريقتها أنّ أباها اتجّه إلى ساحة المعركة، وراح يخاطب الجنود المغاربة بالعربية هاتفاً: لا ينبغي أن تقاتلوا ضد الجمهورية! وهو ما اعتبره الشيوعيون والجمهوريون تجاوزاً أدّى إلى ترحيله من إسبانيا إلى فرنسا، كما طرده لاحقاً الحزب الشيوعي نهائياً، لانتقاده الاتفاقية التي وقّعها ستالين مع هتلر.

> الصحافي الفلسطيني والكاتب والمترجم نجاتي صدقي ستتجمّع خيوط سيرته في فيلم المصرية أمل رمسيس شيئاً فشيئاً

هذا كلّه ودوليا التي تهوى الفنون والرسم ستعاود اللقاء بعائلتها في بيروت، فتجتمع مع نجاتي ولوتكا وهند وسعيد. لكنّها تشعر بالغربة هناك، فتقرّر العودة إلى موسكو، بينما تضطر عائلتها لترك بيروت في مطلع الحرب الأهلية والالتحاق بهند المنتقلة، بسبب عملها، إلى أثينا.

في نهاية الفيلم المؤثر الجميل، منضبط الإيقاع، المتنقّل بين الأمكنة واللغات والحقب، يلتقي الإخوة الثلاثة في موسكو، دولت وهند وسعيد، ثم نسمع دولت تقول لحفيدتها إنّ مبدأها هو: «الإنسان يحمل دوماً هوية الأرض حيث وُلد، وعليه أن يُدفن فيها. لا بدّ أن أنهي حياتي في القدس... على أيّ حال، فإنّ روحي سوف تستريح في القدس»!

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**